

رئيس افضل للأميركيين وربما أكثر رحمة بالعرب!

عمرو حمزاوي الحياة - 08/11/06

أكتب هذا المقال في الساعات الأخيرة لسباق الانتخابات الأميركية ومع بدء توارد نتائجها الأولية مشيرةً إلى فوز المرشح الديمقراطي باراك أوباما بالمقعد الرئاسي، وكذلك احتفاظ الحزب الديمقراطي بغالبية في مجلسي الكونغرس (النواب والشيوخ)، بل ربما تمكنه من توسيع هامشها باتجاه حد الثلثين الحاسم تشريعياً في مجلس الشيوخ. إذا صدقت هذه النتائج الأولية سنكون أمام لحظة تحول حقيقية في موازين القوة بالولايات المتحدة تقترب في عمقها من هيمنة الجمهوريين على السلطتين التنفيذية والتشريعية خلال الثمانينات الريغانية وتعطي أوباما والديموقراطيين تفويضاً شعبياً واضحاً لإعادة صوغ مرتكزات الحياة السياسية ووجهتها الاستراتيجية. هو إذاً حلم التغيير، بعد إخفاقات إدارة بوش الداخلية والخارجية وفي ظل أزمة اقتصادية خانقة، الذي ذهب بفرص المرشح الجمهوري جون ماكين أدرج الرياح ومكن أوباما ذا الأصول الأفريقية وللمرة الأولى في التاريخ الأميركي من الوصول إلى البيت الأبيض.

أميركياً هي لحظة فارقة تراكمت مقوماتها المجتمعية تدريجاً للتصالح مع الماضي العنصري والتاريخ الطويل لاضطهاد المواطنين من أصول أفريقية وتهميشهم السياسي. نعم لن يرتب مجرد وجود أوباما في البيت الأبيض تحولات سريعة في واقع المعاناة الاقتصادية والاجتماعية للأميركيين من أصول أفريقية وشواهد اليومية المنتشرة على امتداد الولايات المتحدة، إلا أنه سيخلق زخماً جديداً لحلم المساواة ويفتح الباب على مصراعيه لصناعة عقد اجتماعي جديد أكثر توازناً وأرقى إنسانياً بين الغالبية البيضاء والأقليات على اختلاف ألوانها. وكما دلت انتخاب جون كينيدي ورونالد ريغان وإن بصياغات مختلفة على قدرة الأميركيين على الدفع بمجتمعهم نحو وجهات مستقبلية جديدة، سيكون انتخاب أوباما الرئيس الرابع والأربعين بمثابة إعادة اكتشاف لهذه الطاقة التحويلية الهائلة بعد كارثية إدارتي بوش (2000-2008).

أميركياً هي أيضاً لحظة تصالح من نوع آخر، تصالح مع السياسة ومضامينها وأدواتها. للمرة الأولى في تاريخ الانتخابات الرئاسية الأميركية منذ الستينات تتجاوز نسبة إقبال الناخبين على الاقتراع حاجز الستين بالمائة. اليوم تعود قطاعات ناخبة واسعة، وفي مقدمها الشباب وناخبو الأقليات، من الذين عزفوا خلال الأعوام الماضية عن المشاركة وتجاهلوا ممارسة انتخابية صفتها محدودة الأهمية والنفع، إلى المشهد السياسي لتعيد هذه القطاعات إلى هذا المشهد حيوية ديموقراطيته وتجدد دمائه. يجسد هذا الإقبال الواسع، إلى جانب كونه مصدر التفويض الشعبي لأوباما كرئيس لكل الأميركيين، إمكانية حقيقية لتأسيس صدقية جديدة للسياسة ولتجاوزها الحسابات الحزبية الضيقة واختصار بوش الاختزالي لها في سلسلة من الهواجس الأمنية داخلياً والمغامرات العسكرية خارجياً. يمتلك أوباما وفريق العمل المحيط به مقومات فعلية للذهاب باتجاه طرح قضايا المجتمع الأميركي الضاغطة من الأزمة الاقتصادية مروراً بالضمانات الاجتماعية والرعاية الصحية والهجرة غير الشرعية إلى إعادة اكتشاف ليبرالية النظام السياسي وتوازن سلطاته الثلاث وعليهما افتأت إدارات بوش طويلاً. نعم يظل أوباما مرشح المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة بمعناها الواسع، فقد أيدته معظم المصالح الاقتصادية الكبرى والقطاع الأكبر من الآلة الإعلامية القوية، وكلاهما اقتنع بحتمية تغير ما بعد بوش وتوافق على المرشح ذي الأصول الأفريقية كمحركه الرئيسي، وهو ما يعني أن العديد من الحدود والحواجز الواقعية سترد على الترجمة السياسية لحلم التغيير. بيد أن أوباما بطاقته الكاريزمية وفريقه المتوازن والتفويض الشعبي الذي سيحمله إلى البيت الأبيض ربما مكنه من دفع هذه الحدود قليلاً إلى الوراء ومصارعة تلك الحواجز وإن جزئياً. وفي ذلك خير أكيد للمجتمع الأميركي.

عالمياً، وبغض النظر عن أحلام البعض وأوهام البعض الآخر بتعددية قطبية مقبلة وانتقال دفعة قيادة منظومة العلاقات الدولية من واشنطن إلى عواصم أخرى، تظل الولايات المتحدة مع كل تعثراتها الداخلية وأزمات سياستها الخارجية الفاعل الأهم في المعادلة العالمية بمقومات قوتها المتنوعة العسكرية والتكنولوجية بل الاقتصادية، فما زال الاقتصاد الأميركي ينتج ما يقترب من

نصف إجمالي الناتج العالمي. أرهقت فترة بوش العالم بنزوع إدارتيه نحو الهيمنة الانفرادية والتوظيف المستمر للقوة العسكرية في حروب لا حدود ولا ضوابط أخلاقية لها وفي سياق غياب شبه تام للأداة الدبلوماسية لم يتراجع سوى نسبياً في العامين الأخيرين. ولم تكن المحصلة النهائية سوى صورة عالمية هي الأسوأ والأقل صدقية في تاريخ الولايات المتحدة لم تعد قاصرة على مناوئي القوة العظمى التقليديين بل امتدت إلى حلفائها داخل المنظومة الحضارية الغربية. يحتاج العالم اليوم إلى إدارة أميركية أكثر انفتاحاً على بقية القوة الفاعلة فيه وأكثر تعويلاً على الشراكة المتعددة الأطراف لإيجاد صياغة توافقية للتعاطي مع معضلات كبرى في موقع القلب منها الأزمة المالية الراهنة والتحديات البيئية وتمدد ساحات الصراعات الإقليمية على نحو أضحى يهدد السلم والاستقرار الدولي. وعلى رغم أن أوباما لم يتمكن خلال الحملة الانتخابية الطويلة من تطوير مواقف واضحة المعالم إزاء بعض هذه المعضلات وقارب بعضها الآخر، إن لدواعي الاستهلاك المحلي أو لأسباب أخرى، بخطاب هو أقرب إلى حروب بوش الاستباقية وانتهاكاته المتكررة لمبدأ سيادة الدول، إلا أن الشعور الشعبي الجارف بين الأميركيين بأهمية تغيير خط بوش الخارجي وفريق العمل الواقعي المحيط به سيدفع أوباما حتماً نحو البحث عن انفراجات تفاوضية ودبلوماسية ستفرض طابعاً أقل حدية على ممارسة الولايات المتحدة لدورها الدولي وسعيها الدائم للحفاظ على مصالحها الاستراتيجية الواسعة. وربما كان على الرأي العام العالمي، الذي انتخب أوباما قبل أن ينتخبه المواطنون الأميركيون، ألا يغالي في توقعاته بتغيير جذري في سياسات واشنطن ويترك للقادم الجديد إلى البيت الأبيض فرصة للعودة بالدبلوماسية إلى الواجهة وللعثور التدريجي على نقاط ارتكاز تختلف عن ممارسات الأعوام الماضية.

أما عربياً، فنحن وعن حق أصحاب التوقعات الأقل إيجابية من تداعيات فوز أوباما بالسباق الرئاسي. تنظيم الوجود العسكري الأميركي في العراق باتجاه انسحاب قادم لقوات الاحتلال وإدارة ملفات إيران المتعددة وأمن إسرائيل هي أولويات الإدارة القادمة، أما قضايا المركزية الأخرى وفي مقدمها القضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسرائيلي فلن تحصل على الأرجح

خاصة في العامين الأول والثاني للإدارة الجديدة على الكثير من الاهتمام الاستراتيجي. نعم سيغير انتخاب أوباما من صورة الولايات المتحدة في العالم العربي وربما منح القوة العظمى مساحة من الصداقة لتجاوز تركة بوش بمحاور الخير والشر وثنائيات المعتدلين والمتشددين، إلا أن السياسات الأميركية لن تشهد تحولات نوعية سريعة.

فوز أوباما كأول رئيس لاميركا من اصول افريقية يضع نهاية لفترة بوش الرديئة. لكنه ايضاً يوم رائع للأميركيين وأفضل للعالم، وربما أكثر رحمة بالعرب.

* أكاديمي مصري.